المحاضرة : نماذج من مخرجات المدرسة الكولونيالية بالجزائر

الأهداف المنشودة:

- التربية وفق مبدأ "ذلك الشِبل من ذاك الأسد" Tel père tel fils
- التعرف على عينة من الشخصيات التي تخرجت من المدرسة الفرنسية
- أبرز مواقفهم واختياراتهم ومنجزاتهم التي ستؤثر في ثقافة الجزائريين لاحقا
- مدى تأثير الأوساط الأسرية على اختيارات الأبناء

حول مخرجات المدرسة الكوولنيالية بالجزائر:

- رغم التّجاذبات والحَملات المعلَنة وغير المعلنَة بين أطراف السّلطة الاستعمارية حول جدّية وفعالية ومردودية الإنفاق التّعليمي على الجزائريين، تمكّنت هذه المدرسة/فئة من إنتاج "فئة /نخبة/ثلّة" من أبناء الجزائر، اجتهدوا وتحصّلوا على رِضا المستعمِر، رغم التَّضيقات والتّمييز التّعليمي الواضح في كثير من المحطّات، من معلميهم أو نظرائهم المتمدرسين الفرنسيين بالاكتساب أو

بالوراثة. فئة "مثقّفة" تَشَربت/تَدجَّنت بثقافته، وانبهرت بحضارته، بل ومنهم من آمن بقَدَرِيته وديمومته بالجزائر، كرّسوا حياتهم في خدمته والدفاع عنه، وعن سياساته وممارساته[1]. ثُلّةٌ من المثقفين المفرنسين des intellectuels francisés ارتبط وجودهم بقناعة عميقة بفعالية الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسّياسية التي أنشأتها الدولة الاستعمارية لبسط وإعادة إنتاج هيمنتها. حيث شغلوا مناصب في الإدارة والقضاء والتّعليم وخاصّة الجيش[2]. ذلك أنّ الجيش اعتبر الفضاء المناسب للتّواصل المتميّز بين العرب والبربر والأوروبيين.

- يذكر Charles-Robert AGERON مقدّم كتاب "Guy Pervillé" (PERVILLÉ, 1984) أنَ كثير من الطلبة الجزائريين المتكونين بالمدرسة الفرنسية سجّل تأخرًا ملحوظاً بالإنخراط في العمل النّضالي (السّياسي والعسكري) بالمقارنة مع نظراءهم المغاربة والعَرب -مع استثناءات قليلة[3]-، بل هناك من عارضه منذ الثّلاثينيات. فلم يكن الطلبة الجزائريون في طليعة

---

[1] ومِنهم من تعلّم لغة المستعمر لِيأمَن شرّه، إذ عديد ممن تعلّم في المدارس الفرنسية، ونجح في تمدرسه، لم ينسلخ عن مبادئه وهويته، بل استعمل لغته ووسائله وأسلحته لمحاربته، سواء داخل الجزائر أو في عُقرِ داره (فرنسا).

[2] بن شريف محمد بن سي أحمد (1879-1921) ابن قبيلة أولاد سي محمد بالجلفة، من أوائل من نشر رواية كاملة بالفرنسية، حول رحلة الحج:

Ben Cherif, Mohamed, « Aux villes saintes de l'Islam », Paris, Hachette, 1919, 252 p., Récit de voyage, préface de M. Jonnart, Gouverneur Général de l'Algérie.

للتنبيه سبقه "محمد بن رحال" الذي كتب أوّل نص أدبي جزائري تجسد في قصة قصيرة باللغة الفرنسية. تقول الروايات أن جدّ بن شريف محمد خدم الأمير عبد القادر في البداية ، ثمّ انضم إلى فرنسا، وبقيت أسرته محافظة على هذا الالتزام تجاهها. لما تخرج محمد اشتغل كاتب ضبط للحاكم Jonnart ثم ملازم في فرقة الصُبايحِيَّة Spahis ثمّ قايد caïd على قبيلته. أفنى حياته لفرنسا ليس فقط من خلال أعماله المكتوبة، ولكن أيضًا بمواقفه الاستثنائية.

[3] ظهرت سنة 1908 أولى مظاهر الحركة الاحتجاجية للشّباب الجزائري بالجامعة الفرنسية بجامعة الجزائر، سنة قبل تأسيسها، ذلك لأنها كانت عبارة عن معاهد وكليات.

القومية ولا نضال التّحرير، ومع ذلك كان دورهم كنّخبة مهماً لمصير البلاد. نخبة تميزت غالبيتها بتبني أيديولوجية شعبوية Idéologie populiste (PERVILLÉ, 1984).

"Le mouvement étudiant algérien semble s'inscrire en contrepoint du mouvement national depuis les années 1930, il ne le fit qu'avec un retard marqué par rapport au comportement des autres étudiants maghrébins et arabes. Les étudiants algériens n'ont pas été à l'avant-garde du nationalisme, ni du combat de libération, mais le rôle de cette élite n'en a pas moins été essentiel pour le destin du pays".

- وبالفعل تمكنت المدرسة الكولينيالية من تكوين فئة من المفرنسين Les francophones، -كمقابل للمُعَرّبين arabophones - من أبناء الجزائريين[4] ، ورِثَت الجهاز الإداري والاقتصادي الاستعماري بعيد الاستقلال، حيث ظهرت فعاليتها وتأثيرها وهيمنتها، حتّى أنّ الجهاز الدّبلوماسي الجزائري بعد الاستقلال غلب عليه المُفرنَسيين، من 32 مسؤولاً نجد 9 مفرنسين و7 مزدوجي اللّغة مقابل 13معرّباً. نُخبَةٌ اكتسبت رصيد ثقافي -غربي فرنسي- نتيجة اجتهادها التّعليمي والتَّعَلُّمي، وصيرورة تثاقفِها مع أبناء الفرنسيين والكُولون، ومُعلِّمي البرجوازية الصَّغيرة (من طلبة فرنسيين) كانت لها الأولوية في إعتلاء المناصب

[4] مع ملاحظة: القول بأنّ فلان أو علان مُفرنَس لا يعني <u>حتماً</u> أنّه موالي وخاضِع لفرنسا، إذ كثير منهم كما ذكرنا كان يملك باعاً كبيرا من ثقافتها،ولكنه حمل همّ مشروع وهوية المجتمع الجزائري الأصيل، المقهور، المغلوب على أمره، وحاول بكل ما أُوتي من قوّة أن يساهم في تنويره عقله وتوعيته بحقوقه (الاستقلال)، بأساليب متباينة. وينسحب القول أيضا على المُعَرَّب، فالعَمالَة والخُضوع والمهانَة للمستعمر لم ولن تكن أبدا مرتبطة بجنس أو عِرق أو نَسب أو مَنطقة أو لغة بعيّنها، أكثر ارتبطت ببنية ذهنيات ومنظومة أفكار يترجمها أصحابها (أفرادا وجماعات) في سلوكاتهم ومواقفهم، التي سجلّها أو سيسجلها عليهم التّاريخ(المكتوب أو الشفهي)، خاصة وأن التاريخ لا يرحم كما يقال.

السّياسية والإدارية الحساسة بعيد الاستقلال، بعد مغادرة السّواد الأعظم من الفرنسيين، بحجّة برّرها"Linard" بقوله:"أنّ المفرنسين Les francisées هم الذين لهم القدرة على تسيير الأمور الإدارية والقانونية".

- رغم حديثنا عن الفئة التي نجحت وتأثرت بالثّقافة الفرنسية، إلاّ أنّ النّماذج التي سنسوقها تبيّن تباينها واختلافها في درجات التّأثر والخُضوع،إذ منهم من آمن بفرنسا عَقيدةً، ولم يتراجع عن قناعاته، بل رافع عنها حتّى آخر حياته، ولم يسجل له التّاريخ أيّ تردّد في ذلك، حتّى أنّ أحدهم كتب "نحن مَسيحيون"، وكتب آخر "نَحن لاتِنيُّون"...، في حين هناك من تراجع وتاب وعاد لأصله الجزائري، كما نجد من فَقِهَ خَبايا الثّقافة الفرنسية ليستعملها في تنوير وتحرير العقول لأجل تحرير البلاد. ولعل من بينهم كثير من رجال Les Hommes الحَركة الوَطنية بتعدّد توجهاتها وقناعاتها الأيديولوجية[5]. نخبة مثلت ما سمِّي " نخبة الحداثين والمفرنسين l'élite modernisée et francisée"، عرفت عند الأوروبيين بالمتقدِّمين les évolués " وعند الفرنسيين بالاندماجيين les

[5] للأسف ما زلنا نتعاطى مع تاريخ الجزائر -خاصة المعاصر- بالعاطفة الزّائدة أو الشّائعات المغرضة التي لم ندرك حقيقتها وصحتها، لأنّنا لا نقرأ التّاريخ جيّداً. فليس من المستغرَب أن يُصبح التّاريخ المسوَّق مُلخَصًا في مقولة أحد الفلاسفة: "التاريخ ما هو إلاّ حاصل كَذب الأحياء على الأموات". لأسباب متعددة هذا ليس مقام توضيحها . نتعاطى معه بعيدا عن التّحقيق والتّمحيص العلمي للأحداث التاريخية وفاعِلِها، إمّا بتَقديسهم وكأنّهم فوق البَشر، أو بتّدنِسهم وكأنّهم غَوغاء لم يفعلوا الكثير، حيث تكثر المحاكماة الشعبوية بمنطق الحاضر للماضي ورجالاته، ونتناسى أنّ أية ثورة هي فعل إنساني -بتوفيق رباني في عقيدتنا- بما تحمله كلمة إنسان من معاني ودلالات، وبنسبية أفعال الأخير. فالتّقديس المفرط للتاريخ هو في ذاته -دَرينا أم لم ندري – تدنيس له، إذ رفعه للقداسة يجعل الأجيال اللاحقة، تسأم من التأسي والإقتداء برموزه، وأخذ العِبَر مِنه بحُجَّة أنّ فاعِلوهُ "أشخاص غير عاديين"(خَارِقون)، لا يمكننا أن نبلغ ما بلغوه. وتصنيف ممارساتهم ضمن الأساطير المستعصَي مجاراتها. تصورٌ للتاريخ يجعلنا نُدنِّسه -دون أن ندري- ونحن نعتقد أنّنا نقدّسُه ونبجّله، حيث ينفر النّاس منه ومن رموزه، طوعاً أو كرهاً، نتيجة تفاقم الخِطاب الأرثوذوكسي الزّائد، أو العَبثي النّاقص عندما لا نلقي له بالاً ولا بتضحيات الرّجال.

assimilés، حسب "Charles-Robert Ageron " في كتابه " Les forces politiques 1925-1939".

- وإليك عيّنة من مخرجات المدرسية الفرنسية تحمل علامة "صُنع بفرنسا Made in France":

- بن شريف محمد بن سي أحمد (1879-1921) ابن قبيلة أولاد سي محمد بالجلفة، من أوائل من نشر رواية كاملة بالفرنسية، حول رحلة الحج :

Ben Cherif, Mohamed, « Aux villes saintes de l'Islam », Paris, Hachette, 1919, 252 p., Récit de voyage, préface de M. Jonnart, Gouverneur Général de l'Algérie.

للتنبيه سبقه "محمد بن رحال" بأوّل نص أدبي جزائري تجسّد في قصة قصيرة باللغة الفرنسية. تقول الرّوايات أنّ جدّ بن شريف محمد خدم الأمير عبد القادر في البداية ، ثمّ انضم إلى فرنسا، وبقيت أسرته محافظة على هذا الالتزام تجاهها. لما تخرج محمد اشتغل كاتب ضبط للحاكم Jonnart ثم ملازم في فرقة الصْبايحِيَّة Spahis ثمّ قايد caïd على قبيلته. أفنى حياته لفرنسا ليس فقط من خلال أعماله المكتوبة، ولكن أيضًا بمواقفه الاستثنائية.

- عبد القادر حاج حمو (1891-1953): عكس بن شريف محمد سي أحمد المشار إليه في هامش الصفحة السابقة، عمل حاج حمو على تقديم الطاعة والإمتنان والولاء لفرنسا ليس من باب الانتساب للجيش كما فعل غيره، وإنّما من خلال القضاء والكتابة. وقد وَرث هذا الشَّغف من والده الذي كان قاضي

Cadi مليانة، حتّى أنّه اقترح سنة 1893 مشروعًا لإصلاح العدالة الإسلامية في الجزائر أمام لجنة مجلس الشّيوخ الفرنسي. "ذلك الشِّبل من ذلك الأسد" كما يُقال، فلم يحد عن مسار والده إذ اشتغل بعد تخرّجه مدرساً للغة العربية، ثمّ مترجماً شفوياً بالمحكمة، لأنّه كان يتقن اللّغتين العربية والفرنسية. ظهر ولاءه بشكل كبير لفرنسا خلال احتفالات ما سمته السلطات "مئوية الجزائر الفرنسية le Centenaire de l'Algérie française" ، بل مئوية احتلال الجزائر، إذ قدّم خطابا في عام 1930، نِيابة عن الكُتّاب المفرنَسِيين من أصل عربي-بربري. كما احتلّ مكانة محترمة ضمن حركة المتَجَزأَرين Mouvement Algérianiste [6]، إذ كثيرًا ما كان يدافع عن أفكاره في الصّحف والمجلاّت والكتب تحت أسماء مستعارة El Arabi ou Abdelkader Fikri، مع مقدمات لبعض مؤلّفاته لمسؤوليين فرنسيين مدنيين وعسكرين. نشر سنة 1925 كتابه:

*Le frère d'Ettaous, in : « **Notre Afrique, Anthologie des conteurs algériens** », préface de BERTRAND LOUIS, Paris, Les Editions du Monde Moderne, 1925, pp. 1-28.*

وبعد سنة نشر باسم FIKRI مع "Robert Randau "، حوار في شكل قصة[7] ، أُعتبِر "إنجيل التّعايش بين المجموعات الأوروبية والأهالي" (MILIANI, 1983,

---

[6] حركة ثقافية وأدبية أسسها بعض الأدباء والمثقفين الذين انشغلوا بخصوصية ثقافية للجزائريين (الفرنسيين ومن يدور في فلكهم) على نحو ما حدث بالو.م.أ الذين شكلوا الثقافة الأمريكية بعد الانفصال عن بريطانيا، ومن أبرزهم Robert Randau وJean Pomier، وحاج حمو.. حركة الجزأرة L'Algérianisme يصفها Maurice Calmein رئيس ومؤسّس الدائرة الجزائرية عام 1973: بأنها ليست مجرد تيار أدبي ، بل حالة فكرية وذهنية، وواقع إنساني وتاريخي، وتواشجٌ للنّفوس، وثقافة تُرجمت إلى سلوكيات، لغة، فولكلور، مطبخ، تم التعبير عنه وما زال يعبر عن نفسه في الفنون والمسرح والسّينما والأغنية. من :L'Algérianisme . https://www.librairie-pied-noir.com/content/6-algerianisme

[7] HADJ-HAMOU, Abdelkader, Pseudo:FIKRI et RANDAU, Robert, Les compagnons du jardin, Paris, Donat-Monchrestien, 1933, réédité par DUGAS, Guy, in L'Algérie, un rêve de fraternité, Paris, Omnibus, 1997, pp. 59-154.

(p. 11. كان يحلم بجزائر فرنسية إلى الأبد، مع الإندماج الكلي حيث يُحتَرَم دين الآخر ويعرفه الجميع، برؤية مثالية لفكرة التّعايش بين مختلف مجموعات الجزائر.

Je rêve d' une Algérie à jamais française ; je suis partisan de l'égalité et de droit absolu , tout au moins au faveur à notre élite.

- تميز بكثير من الغموض وتعتيم واضح للواقع الاستعماري، وبتأثّر وخضوع قويّ تجلّى في كتاباته، الأمر الذي يذهل قارئ اليوم حول نزاهة مواقفه كما يقول بعض المتتبِّعين. كتابات عكست لَهفة الإندماج الذي كان يحلم به، وعمل كلّ شيء ليتوافق مع الخِطاب الأيديولوجي السّائد آنذاك، وإليك مقتطفات مما كتب[8]:

"*La France étant par le cœur la plus grande puissance musulmane du monde, tout Français a pour devoir de connaître l'Islam et les Musulmans".*

"بكل صدق فرنسا أعظم قوّة إسلامية في العالم، ومن واجب كل فرنسي معرفة الإسلام والمسلمين". وعن تأثير فرنسا على الدول الإسلامية:كتب

'Ils commencent, en Algérie et au Maroc, depuis que le drapeau français y flotte, à comprendre leur religion qu'ils ignoraient. (...) La France est venue. Ses écoles continuent à dissiper les ténèbres'.

[8] L'Islam est-il immuable? in Mercure de France, 1er mai 1930, pp. 599-611..

"بدأ المسلمون بالجزائر والمغرب منذ رفع العلم الفرنسي، يفهمون دينهم الذي لم يعرفوه، إلاّ بعد أن هلّت فرنسا عليهم، بمدارسها التي مازالت مستمرة في تبديد الظّلام".

غالبا ما أثارت كتاباته السخرية والانتقاد باعتبارها مثالية مجردة، بغيدة عن الواقع، تحاول إخفاء الشّمس بالغربال، وتتغافل عن فظائع النّظام الاستعماري ومرارة الحياة اليومية للمسلمين في فترة ما بين الحربين. خاصة الحوار مع روبرت راندو، رفاق الحديقة *Les compagnons du jardin* الذي أثار انتقاداً عنيفاً.

- رابح زِناتي (1877-1952): من مواليد عام 1877 في تاوريرت الحجاج (بلدة مختلطة فورت ناشيونال، أربا-ناث-إراثين) منطقة القبائل الكبرى، لعائلة فقيرة. شارك والده في ثورة المقراني في عام 1871. لتحرق السلطات الاستعمارية منزلهم، واضطرّت العائلة للجوء إلى كهوف جرجرة. لم يلتحق بالتّعليم الفرنسي إلاّ في سن الثّانية عشرة، رغم الرّفض الشّديد لوالده الذي كان يريد أن يبقيه بعيدًا عن الرّومي " Le soustraire au contact des roumis "[9]. لكن، على الرّغم من بدايته المتأخرة إلاّ أنه أبلى بلاءً حسنًا في دراسته،حيث اعتنق مُثل وقِيم فرنسا العادِلة والمتحضّرة -حسبه-. مدرس فرنسي الجنسية منذ 1903، عضو SFIO (Section française de l'Internationale ouvrière)، مؤسّس مشارك

[9] Introduction de l'auteur à ZENATI, Rabah, Le problème algérien vu par un indigène, Paris, Publications du Comité de l'Afrique française, 1938, p. 9. Cité in : http://theses.univ-lyon2.fr/documents/getpart.php?id=lyon2.2003.hardi_f&part=78078#Noteftn66

لمجلة La Voix des Humbles [10] ، التي غادرها سنة 1929وأسّس أسبوعية La voix indigène [11] ، والتي أصبحت فيما بعد La Voix libre (1947-1952). تمّ تقديم فلسفتها في العد الأول في 13 يونيو 1929على أنّها مجلة تعبر عن الاتحاد الفرنسي الإسلامي والدفاع عن مصالح الأصليين journal d'union franco-musulmane et de défense des intérêts indigènes'، تهدف للتقارب والاندماج، ولجزائر فرنسية للأبد le rapprochement, l'assimilation, une Algérie définitivement française..، ذلك لأنّه كان من أشدّ المؤيدين لمطالب الاندماج الكلي، فقرّر أن يتخذ لذاته رسالة دور الوسيط بين الأوروبيين والمسلمين(Gallissot, 2014) .

- زادت مكانته بين نظراءه فاضحى الأمين العام للجنة الدفاع عن حريات الأهالي، وكانت له سفريات متعددة للقاء مسؤولين منتخبين باريس. بعد أعمال الشغب ضد -سطوة- اليهود في أوت 1934 بقسنطينة، دعا للتهدئة خوفًا من تنامي ما سماه إثارة كراهية الأجانب. حتّى أنّ الدكتور بن جلول اتّهمه ببيع نفسه لليهود وللإدارة الاستعمارية. سنة بعد ذلك تمّ إطلاق جريدة: L'entente Franco-Moslem، باسم فيديرالية المنتَخَبين Fédération des élus ، أعلن فيها "زناتي"

---

[10] التي كتب عنها فرحات عباس في كتابه La Nuit Coloniale ، المجلد الأول من ثلاثية الحرب والثورة في الجزائر ، 1962 :

« Venant d'un autre horizon, des instituteurs d'origine indigène, courageux et dévoués, les Tahrat, les Lechani, les Belhadj, les Makaci, les Amrouche, groupés autour de la revue La Voix des Humbles, défendaient le droit à l'égalité et participaient, par l'école, à l'émancipation de la société arabo-berbère ».

[11] معناها بالعربية "صوت المتواضعين La Voix des Humbles " دورية اجتماعية تربوية للمعلمين من أصل جزائري الذين ناضلوا من أجل المساواة في الحقوق المدنية والاجتماعية مع المعمرين الفرنسيين. دافعت عن حق المساواة وشاركت من خلال المدرسة في تحرير المجتمع العربي البربري كما قال فرحات عباس.

عن ضرورة الاختيار الواضح بين الاندماج والاتحاد (Gallissot, 2014). وبعد فشل مشروع " Blum-Viollette" عاد وانضمّ لمشروع "النائب المستعمر l'élu colonial"،لصاحبه"Paul Cuttoli " الذي دعا لمنح الجنسية الفرنسية بشكل تلقائي للنّخبة (الاندماجيين).في 1938 نشر 'المشكلة الجزائرية في تصور أحد الأهالي "Le problème algérien vu par un indigène في الاستخبارات الاستعمارية Les renseignements coloniaux، وهو ملحق لنشرية أفريقيا الفرنسية Bulletin de l'Afrique française ، مجلة تابعة للّوبي الاستعماري. وباسم مستعار "حسان Hassan " تمّ تحويله لكتاب: كيف ستهلك الجزائر الفرنسية .*Comment périra l'Algérie française*. زاد نشاطه في حماية فرنسا خلال الحرب العالمية حيث كان يحذر باستمرار من الدّعاية الألمانية بين الجزائريين. ونشر عام 1944 رواية "بو النوار، الشاب الجزائري-Bou-el Nouar, le jeune Algérien"[12]، مع ابنه "أكلي" رئيس نقابة المحامين بقالمة، فازت روايتهما بالجائزة الأدبية الكبرى للجزائر الفرنسية- وكيف لا وأفنى حياته لأجلها-.

[12] رواية عكست حالة التيه والشعور بالوحدة بل والاستلاب نتيجة انسلاخه عن أصله وانغماسه في وسط لم يتقبله بصدر رحب، وكانت تلك سمة معظم أبطال الروايات الجزائرية الناطقة بالفرنسية في ما بين الحربين، حيث رام من خلالها كتابها البحث عن الهوية التي فقدوها أو اضطربت عندهم كما يؤكد المختصون. و"بو النوار " الابن الأول لأسرة ثرية من الأرض، من قرية عين روينا بقسنطينة. كان والده يعارض في البداية أية فكرة لتعليم ابنه، وشيئًا فشيئًا مع تدخلات وتوسّلات من حوله، سمح له بالذهاب إلى المدرسة. مساره التعليمي سيقوده من المدرسة القرآنية بالقرية إلى مقاعد المدرسة الابتدائية الفرنسية، ثم إلى الثانوية حيث تحصل على البكالوريا، ومنه إلى جامعة الزيتونة بتونس. تشكل كل مرحلة تعليمية بالنسبة إليه مسافة استبعاد من بيئته الأسرية (هويته)، حيث سيشعر أكثر فأكثر بالغُربة. لكن الجزء المأساوي من رحلته هو رفض عالم "الآخر l'Autre " بالترحيب به إذ وجد نفسه مذبذب (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ). سيتجسد هذا السّعي الحثيث للبحث عن الاستيعاب والاندماج quête de l'assimilation بشكل مكثّف ومأساوي في علاقاته مع النساء عندما يتزوج والده زوجة ثانية، في سنّ ابنه بو النوار. كما قدمت الرواية انتقادات شديدة لتعدد الزوجات من خلال ردود أفعال الشاب المتعلم في المدرسة الفرنسية، ووكذلك الأم التي لن تغفر للأب المستبِد ولا لزوجته الثانية. علاوة على ذلك ، فإن هذه المرأة الجديدة في المنزل ستجعل عيون الابن الأكبر ناعمة وستحاول بكل الوسائل تحويله عن اهتماماته الفكرية لجذبه نحو اهتمامات الجسد. وبالتالي فإن ممارسة تعدد الزوجات وإدراكها في الحالة الواقعية يتم تقديمها بطريقة سلبية للغاية، وتشكل عقبة في طريق البطل. على بو النوار أن يخضع رغما عن إرادته لإرادة والده الذي سيُزوج وهو في

- شكري خوجة (1891-1967) (حسن خوجة حمدان): ابن عائلة من صغار التّجار ذات رأس مال مادي وفكري محترم، كان جدّه من أمه رئيسًا لمحكمة الجزائر العاصمة وكاتبًا[13]. بدأت حياته المهنية في المدرسة في مدرسة سوستارا الابتدائية للسكان الأصليين، حيث تخرج من المدرسة الابتدائية. في سن السادسة عشر، فقد والده ودفعته الضّرورة للعمل كبائع لتاجر يهودي وسط مدينة الجزائر ثمّ في الإدارة. تحصل في 1922 على دبلوم الدراسات العليا للمدارس Diplôme d'Etudes Supérieures des Medersas. أتقن اللّغتين العربية والفرنسية، ليتم تعيينه مترجماً فورياً بمحاكم الجزائر العاصمة. كما اتّصف بالهدوء والاجتهاد ما جعله موضع تقدير من قبل رؤسائه، ليُعيّن عام 1933 ممتحنًا لجميع فئات مُترجمي المحكمة. لم يخلف سوى روايتين.
- حاول من خلال نشاطه الجمعوي والأدبي التّوفيق بين هويتين ذاتيتين بين تعليمات إسلام جزائري أصيل وغراءات حداثة فرنسية مكتسبة، بين إملاءات هويته الثقافية الأساسية وطلبات ثقافة التّعليم الفرنسي، أفضى لصراع وضغط داخلي، وخارجي من نظراءه، كانت نتيجته أزمة عصبية حادّة قبيل وفاته.

منتصف دراسته الجامعية بفتاة من القرية...وتتواصل معاناته بعد رفضه إتمام الزواج، وانفصال زوجته الثانية عنه، الفرنسية التي سرعان ما تركته بسبب تحيزات العرق والدين. وبعد الانعطافات المؤلمة ، سيكون حب الزوجين أقوى من التحيزات ويلتقيان مرة أخرى في نهاية الرواية، لكن في أذهانهم مساحة الجزائر الاستعمارية لا يمكن أن تتسامح مع اتحادهم وسوف يلجأون إلى فرنسا ....حيث كان **مسعى البطل هو الاجتماع مع الآخر L'Aure ، والرغبة في ترحيب وقبول الأخير به**. (مقتطفات مترجمة بتصرف من المصدر:

Ferenc Hardi, « Discours idéologique et quête identitaire dans le roman algérien de langue française de l'entre-deux-guerres », sous la direction de M. Charles, Université Lumière Lyon 2, 2003. http://theses.univ-lyon2.fr/documents/getpart.php?id=lyon2.2003.hardi_f&part=78081

[13] تعريجنا على أصول وأسر هذه الفئة يندرج في محاولة توضيح الخصائص السوسيولثقافية لهؤلاء الذين تمكنوا من كسب الرّهان التعليمي بالمدرسة الفرنسية.

- ولد محمد ولد الشّيخ(1906-): نجل آغا الشيخ بن عبد الله الذي عمل على بسط النفوذ الفرنسي على منطقة كولومب بشار (Jean Déjeux, 1984, p. 178). أسرته ذات نسب مرابطي من أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي الجزائري. قاوموا الاستعمار (مقاومة الشّيخ بوعمامة) بدأت 1881-الى 1909.
- محند سعيد لشاني Mohand Lechani(1893 - 1985): ولد بآيت حلي في بلدية إرجن الحالية بمنطقة القبائل العليا، مدرس جزائري وناشط سياسي ونقابي. ينتسب للحركة البربرية والامازيغية، وللتيار Jean Jaurès [14]، كتب في عديد الصحف، كما شارك في الحركات الاجتماعية والسياسية والثقافية المطالبة بتحرير الجزائر، ونقطة البداية هي بالتعليم للجميع. انضم إلى رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان والمواطن (La Ligue française pour la défense des droits de l'Homme et du citoyen (LDH)، ضمن النقابة الوطنية للمعلمين(مـات) في فرنسا والمستعمرات Syndicat national des instituteurs et des institutrices de France et des colonies، التي كانت تصدر مجلة أسبوعية "المدرسة المُتَحَرِّرَة L'école émancipée ". كما انضم للقسم الفرنسي للأممية العمالية (SFIO) عام 1912. حينما بلغ 19 سنة ترك مدرسة المعلمين ببوزرية، وكانت مناهضته الاستعمار لا تزال في مهدها.

[14] فيلسوف فرنسي من الطبقة الوسطى، درس في المدرسة العليا (ENS) وحصل على شهادة في الفلسفة. من مؤسسي القسم الفرنسي من الأممية العمالية (SFIO) هو حزب سياسي اشتراكي فرنسي ، وجد من 1905 إلى 1969. ثم تحوّل الى الحزب الاشتراكي، تأثر به عديد الشباب الجزائري آنذاك.

- متحمسا لفلسفة تكافؤ الفرص التعليمية للجميع، يعتبر من السباقين في التربية الجديدة[15] لتأثره بأفكار: Decroly و Freinet و Piaget في السنوات 1933-1934، وهي الفترة التي أدخل خلالها هذا المعلم البروليتاري المطبعة إلى مدرسة في الجزائر5. في عام 1934 ، نشر مقالًا في La Voix des Humbles بعنوان 'بحثًا عن طريقة عقلانية لتدريس اللغة الفرنسية في مدارس السّكان الأصليين A la recherche d'une méthode rationnelle pour l'enseignement du français à l'école indigène'. قادته مسيرته التعليمية إلى المشاركة في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي في مشروع اللجنة المسؤولة عن تطوير اللغة الفرنسية برئاسة عالم اللغة الشهير جورج غوغنهايم.
- فرحات عباس (1899-1985): الإندماجي حتّى النّخاع في بداية نضاله والاستقلالي بعد اندلاع الثّورة، وبعد الخَيبة التي أصابته بعد أن اكتشف تضليل وتدليس الاستعمار. تحصّل "فرحات عباس" على البكالوريا سنة 1921 ، وتخرّج كصيدلي سنة 1931، كاتب صحفي وسياسي مُتمرِّس، مثير للجدل، خاصة في بداية مساره النِّضالي، تطوّرت مواقفه على مدار حياته حسب تطوّر السّياق النّضالي الذّاتي والمجتمعي للشّعب الجزائري، وتعدّدت مساراته وفاعليته، من مطالب الإندماج والمساواة إلى ضرورة الاستقلال التّام ورحيل

[15] التربية/ التعليم الجديد اتجاه تربوي يرافع عن مبدأ المشاركة الفعّالة للأفراد في عملية التربية. التعلم قبل أن يكون هدفه تراكم المعارف، يجب أن يكون عاملاً لتقدم الفرد. ولتحقيق ذلك يجب أن نبدأ من مراكز اهتمامنا ونسعى جاهدين لإثارة روح الاستكشاف والتعاون بين المتعلمين، وفق مبدأ الأساليب النشطة. تدعو هذه الفلسفة التربوية لتعليم انساني عالمي، يعطي أهمية متساوية للمجالات التّعليمية المختلفة: الفكرية والفنية، والمادية واليدوية والاجتماعية.

المستعمر. من الممكن أن تكون عبارة "فرنسا لم تستعمِر الجزائر، بل أسّستها" مرتبطة بفترة ما قبل البَيان الجزائري لعام 1943.

- في عام 1931، جمع مقالاته الّتي كتبها في عشرينيّات القرن الماضي تحت عنوان « Le jeune Algérien : de la colonie vers la province»، عمل رافع فيه عن أفكار الإدماجيّة، ودافع عن حقّ مساواة الجزائريين بالفرنسيين، مشيرا للسُّبل الّتي تجعل الجزائر ولاية فرنسية حقيقية، مستفيدة من المزايا الّتي توفّرها الدّولة المستعمِرة (التّعليم ، الطّب ، الاقتصاد، إلخ). جزائر تتّسع للجميع، فرنسيين وجزائريين، يهود ومسيحيين. حتّى 54 وهو يرافع عن أفكاره الإدماجية فكتب في إحدى مقالاته: "أنّ الاتحاد الدّيمقراطي للبيان الجزائري العام " UDMA ما يزال يأمل الحصول التّدريجي على الشّخصية السّياسية الجزائرية، ومن حقّ الجزائر أن تكون لها حكومة تتمتّع بالحكم الذّاتي والاتحاد مع الشّعب الفرنسي، مصدر السّلام والرّخاء لبلدنا".
- ترأس أوّل حكومة مؤقّتة للجزائر من سبتمبر 1958 إلى أوت 1961، وأوّل مجلس وطني تأسيسي للجزائري 1963. ليستقيل بعد ذلك، ملخصا سبب ذلك بقوله في رسالة الاستقالة: "الثّورة فجّرها الشّعب من أجل الشّعب وليس من أجل شخص واحد، ويجب أن تبقى في خدمة الشّعب بكامله والدّيمقراطية لا تعني الفوضى ولا السّلطة الضّعيفة، بل تعني الحكومة من الشّعب وإلى الشّعب".

- خلّف مجموعة كتب من أبرزها ("الشّاب الجزائري" ، "ليل الاستعمار"،"تشريح حرب"، "الاستقلال المُصادَر"، و"غدا سيطلع النّهار". رغم ثقافته الغربية كان متشبّعا بالثّقافة الجزائرية والاسلامية، ومن أشهر عباراته "الإسلام للشّعب الجزائري كالماء للسّمكة". (الاستقلال المصادر. ص119). وهذا ما يفسر قربه من "عبد الحميد بن بايس"، رئيس جمعية العلماء المسلمين، رغم التّباين في القناعات الأيديولوجية. حيث يذكر المؤرّخ الجزائري "محمد القورصو " أنّ "على الرّغم من الجدل الذي اندلع بين الرّجلين فإنّ فرحات عباس والشّيخ ابن باديس كانا قريبين جدًّا". كان من مؤيّدي الثّورة بعد إندلاعها، حتّى عندما سأله الحاكم الفرنسي "جاك سوستال" في 1955 عن الثّورة أجابه: "نحن كلّنا فلاقَة des fellagas، فالشّجعان حملوا السّلاح والأقل شجاعة أمامكم!".
- **فرحات عباس من الاندماج الى الاستقلال:**

«Si j'avais découvert la « nation algérienne », je serais nationaliste… Et cependant je ne mourrai pas pour la « patrie algérienne », parce que cette patrie n'existe pas. Je ne l'ai pas découverte. J'ai interrogé l'histoire, j'ai interrogé les vivants et les morts ; j'ai visité les cimetières : personne ne m'en a parlé. Sans doute ai-je trouvé « l'Empire arabe», l'Empire musulman », qui honorent l'islam et notre race. Mais ces empires sont éteints. Ils correspondaient à l'Empire latin et au Saint-Empire romain germanique de l'époque médiévale. Ils sont nés pour une époque et une humanité qui ne sont plus les nôtres . . . Nous avons donc écarté une fois pour toutes les nuées et les chimères

pour lier définitivement notre avenir à celui de l'œuvre française dans ce pays»[16].

"لو عثرت على الأمة الجزائرية لكنت مجاهدًا وطنيًا، ولما خَجلت من وطنيّتي، وكأنّها جريمة، إنّ الرّجال الّذين ماتوا في سبيل المثل الأعلى للوطن يحبّهم النّاس ويمجّدونهم كلّ يوم وليست حياتي أفضل منهم، ومع ذلك فلن أموت من أجل الوطن الجزائري لأنّ هذا الوطن لا وجود له، ولم أكتشفه حتّى اليوم"! . لقد بحثت في التّاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر فلم يحدّثني أحد عن هذا الوطن". كما صرّح "فرحات عباس" في جويلية 1946لمحرِّر جريدة FRANC-TIREUR " السّيد " FOURRIER":لا أنا ولا أصدقائي يريد بأيّ ثمن أن يَضُرَّ برسالة التّمدين التي تتولاّها فرنسا في شمال إفريقيا. وكتب عنه " Jean La Couture "إنّ ما كان يقوله، آنذاك السّيد عباس لمحدثيه الباريسيين، لم يكن يتضمن ضرورة التّعامل مع جبهة التحرير الوطني FLN، أو ضرورة الاعتراف باستقلال الجزائر، أو ضرورة الإسراع في سحب الجنود الفرنسيين من الجزائر. أنه كان يطلب بدلا من القرارات الخاصة بدعم المجهود الحربي، إعداد وإقرار اجراءات تؤكد المساواة التّامة بين المجتمعات الأوروبية، والإسلامية في الجزائر، كان يؤكّد أن تحقيق مثل هذا النّظام يمكن أن يُنهى، أو يُعطي صِفة أخرى للثّورة، بل ربما أيضا أن يسوي لفترة طويلة مشكلة مستقبل الجزائر". ولعل مقالة "أنا فرنسا La France c'est moi "، التي نشرها في

[16] Ferhat Abbas, L'Entente, 23 février 1936, cité par Youssef Girard, «Assimilation et séparatisme dans le mouvement nationaliste algérien au milieu des années 1930», Ahmed Boubeker et Abdellali Hajjat (dir.), Histoire politique des immigrations (post)coloniales en France (1920-2008), Paris, Éditions d'Amsterdam, 2008, p. 47-48.

جريدة "الوِفاق" بتاريخ 27 فبراير 1936، والتي تراجع عنها لاحقاً، جلبت له عديد الانتقادات، حيث ردّ عليه الإمام عبد الحميد ابن باديس، فكان "رجلا" باعترافه بخطئه. حيث عاد ورافع عن نفسه من تهمة ولائه للفرنسين « pro-français » وكتب:

"Connaissant le passé colonial, j'appréhendais surtout les révoltes et la mort de multitude d'innocents. C'est pourquoi j'ai recherché longtemps la solution de conciliation et l'émancipation grâce à la culture scientifique des masses populaires…. On a dit que j'étais « pro-français ». Plus exactement, je suis de culture française. Et c'est presque le cas des hommes de ma génération, de ceux qui nous ont précédés et de ceux qui nous ont suivis. Cet enseignement français pouvait-il nous faire perdre notre personnalité et nous détacher de notre passé ? Je ne l'ai jamais cru."

"بمعرفة الماضي الاستعماري، كنت أخشى قبل كلّ شيء نشوب الثّورات وموت كثير من الأبرياء. ولهذا السّبب سعيت طويلا لحل المصالحة والتّحرر من خلال الثّقافة العلمية للجماهير الشّعبيّة.... لقد قيل إنّني 'مؤّيد للفرنسيين'. بتعبير أدق ، أنا من الثّقافة الفرنسيّة. وهذا هو الحال تقريبًا مع رجال جيلي، أولئك الذين سبقونا والذين تبعونا. ... هل يمكن لهذا التّعليم الفرنسي أن يفقدنا شخصيتنا ويفصلنا عن ماضينا؟، لم أعتقد ذلك أبدا". ويردف مرافعا عن هويته الإسلامية قائلا:

- *L'Islam est une « patrie spirituelle », sans frontière, qui nous guide du berceau à la tombe. Elle assimile les cultures étrangères sans*

être absorbée par elles, ni même déformée ou affaiblie. Je suis donc resté musulman et Algérien par toutes les fibres de mon âme. Mais la culture française m'a donné un sens élevé de la vie et m'a fait mesurer les valeurs de la démocratie et de l'humanisme vrai. Je lui reste fidèle » (Abbas, 1981, p. 27)

- "هل كان في إمكان التّعليم الفرنسي أن يفقدنا شخصيتنا و يفصلنا عن ماضينا؟ لم أعتقد هذا أبدا. فالإسلام 'وطن روحيٌّ' بلا حدود، يوجِّهنا من المهدِ إلى اللّحد، يَستوعب الثَّقافات الأجنبيّة دون أن تَستوعِبَه، ولا حَتى تُشوّهُه أو تُضعِفَه. لذلك بقيت مسلماً وجزائريا في أعماق روحي. لكن الثقافة الفرنسية أعطتني إحساسًا عالياً بالحياة وجعلتني أقدِّر قيّم الدّيمقراطية والإنسانية الحقيقية،وسأبقى لها وفياً ".

فعاليّة مؤسّسات الهامش في تنشئة الجزائري:

- الحديث العلمي عن تاريخ التّعليم بالجزائر، يضطرّنا للنَّبش في المناطق الهامشيّة للمجتمع، أي البحث في مناطق الظّل والعَتمَة المجتمعية، الّتي تَنضوِي علميا ضمن ما يسمى بالتّاريخ الهامشي للمجتمع، أو ما يسميه آل علم التّاريخ "التّاريخ من أسفل" (اليعقوبي و طحطح، 2016). ويقصَد بتاريخ الهامش تاريخ يسجله الأفراد والمؤسّسات التّي تواجدت على جانب الإضاءة الرّسمية(الإعلامية،

السّياسية، البحثية،..)، تاريخ أشخاص لم يذكرهم التّاريخ الرّسمي، أو ذكرهم على الهامش، بتبريرات مُؤَدلَجَة لا علمية[17].

- كثير من بين الفضاءات المسكوت عنها في التّأريخ للتشكّل الوعي الثّوري، وتجسيده من خلال ممارسات عمليّة، كجمع الأموال les cotisations (رغبا أو رهبا)، توزيع البيانات والمنشورات،... المقاهي والملاهي اللّيلية Les cabarets بفرنسا، حيث كان يرتادها كثير من العمال المهاجرين، خاصة مع مطلع الأربعينيات، الذين تضاعف عددهم بمقدار النصف بين عامي 1954 و 1962 ، لينتقل من 300 ألف إلى 450 ألف نسمة[18]. فكانت فضاء خصبا لتعزيز أبعاد الهوية والثقافة الجزائرية والمغاربية، من خلال مساهمات عديد المغنيين والمسرحيين المتميزين آنذاك، واستنهاض الوعي الوطني والثّوري لديهم، رغم أنّ المخابرات الفرنسية جعلتها بعد الثّورة نصب مراقبة بصرية مكثفة لعديد المناضلين. ستعرف الملاهي بعد ذلك

---

[17] يذكر الباحثان خالد اليعقوبي، خالد طحطح، في كتابهما " التاريخ من أسفل : تاريخ في الهامش والمهمش" أن دراسة الهامش والمهمش بدأت تتموقع ضمن العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر ضمن سياقات استوغرافية أجنبية (دراسات غربية)، وطورها بشكل ملفت رائد تيار الحتمية الجغرافية الألماني "فريدريك راتزل"، الذي سيلبسه رداء الفقر والتّهميش المجالي، والأنتربولوجي "كوبر" الذي سيكسبه بعدا ثقافياً وحضاريًا. تكشف مركزية مفهومي الهامش والهامشية في كثير من قضايا تُحتجَب وراء براديغم "الحدث التّاريخي الرّسمي"، وتقود نحو تأويل المعرفة التاريخية، بشكل يسهم في هدم وإعادة بناء الواقعة التاريخية من زاوية جديدة، بمفاهيم جديدة ومصادر جديدة .

[18] للتّذكير النّشاط الموسيقي والمسرحي ليس وليدة الفترة بل يعود لعقود مضت، حيث كانت السّلطات تجلب مغنيّين ومغنّيات للجنود المغاربة، والعمال لاحقا. حيث أقيمت خلال الحرب العالمية الأولى حفلات موسيقية لجنود شمال إفريقيا من قبل موسيقيين من بلدانهم الأصلية. شارك فيها مغني الأوراس الشهير "عيسى الجرموني" ، وعزف في قاعة الأولمبياد سنة 1937 . وقبله 1924 قدّم موسيقيون ومغنون جزائريون عروضهم في باريس في قصر الإمبراطورية وفي الأولمبيا. كما قدّم رئيس جامع باريس المستقبلي "سي قدور بن غبريت" عرضا ل"محي الدين باشتارزي" على راديو باريس. كما غنى ذات الموسيقار عام 1926، La Marseillaise باللغة العربية في Quai d´Orsay. وكذلك قدم عام 1927 حفل موسيقي بقاعة القرية في الدائرة العاشرة بباريس، في مقهى مغاربي بمسجد باريس، نظمته صحيفة L'Intransigeant حضره عمال جزائريون أتوا من مناطق كليشي، سان دوني، نانتير، جينفيلييه، بيلانكور*.

*Hadj Miliani, « Diasporas musiciennes et migrations maghrébines en situation coloniale », Volume !, 12 : 1 | 2015, 155-169.

عصرا ذهبيا بتنظيم سهرات غنائية ومسرحيّة مختلفة، مغاربية، حيث أمست فضاءات لتنشئة نضالية متميزة، التي تطورت للمقاومة والمشاركة الثّورية لاحقا.

- ولعل من بين الملاهي الّتي كانت كذلك مَلهى "الدّازيرEl Dazaïr" للملحن محمد إيغيربوشن، وملهى القَصبةLa Casbah " أين كان رشيد قسنطيني أحد رواد المسرح الجزائري بالعربية العامية يحيي سهراته، إضافةً لملهى "محمد فتوقي Mohamed Ftouki"، أب "مسعود" العازف الموسيقي، و"وردة الجزائرية" التي تلقّت أبجديات التربية الموسيقية به، حيث سجّلت أوّل أغنية وطنيّة. محمد، ناشط ومناضل وطني، وصاحب مطعم ثمّ ملهى "تام تام Tam Tam "، الحروف الأولى لتونس، الجزائر، المغرب Tunisie, Algérie, Maroc"، بعد رفض اسم Le Grand Maghreb لما يحمله من دلالات سياسية مرفوضة من لدن السّلطات بباريس. في 1958 تمّ اكتشاف أسلحة بذات الملهى، مّا اضطرّ العائلة للفرار الى لبنان. حدث ذلك بعد نقل الصّراع إلى فرنسا، من خلال إنشاء الاتحاد الفرنسي لجبهة التّحرير الوطني.
- **الحربين العالميتين:**

سنة 1881. ويقول الدكتور عبد الحميد زوزو في كتابه : "دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939: "إن فرحات عباس قال وهو يتحدث عن نتائج الحرب العالمية الأولى بالنسبة للجزائريين" بأن للأحداث الكبرى نتائج غير متوقعة على الرجال، فمن نتائج الحرب الكبرى أن تعرّف الجزائريون على فرنسا أثناء كفاحهم عنها حتى بدت لهم وكأنها أرض الميعاد".

وفي عام 1912 احصى الديوان الجزائري لليد العامله وجود عدد لا بأس به من العمال الجزائريين في فرنسا يتراوح عددهم ما بين 4 آلاف إلى 5000 شخص، وجلّ هؤلاء من منطقة بلاد القبائل. وغداة الحرب على الثورة، ولكن هذا لم يمنع من تزايد عدد الجزائريين العائدين من فرنسا إلى الوطن الأم، وكثيرون منهم التحقوا بصفوف الثورة، فقد لاحظنا أن في بعض السنوات يكاد يتساوى عدد الجزائريين المهاجرين إلى فرنسا والعائدين منها إلى الوطن.

ففي عام 1956 مثلا هاجر إلى فرنسا 85.640 شخصا، وعاد في نفس الوقت إلى الجزائر 81.874 نسمة، وطيلة سنوات الحرب تقريبا يكاد يتساوى عدد المهاجرين بعدد العائدين.

العام	العدد	العام	العدد
1914	7.444 شخص	1915	20.092 شخص
1916	30.755 شخص	1917	34.985 شخص
1918	23.240 شخص	1919	21.684 شخص
1921	17.259 شخص	1922	44.466 شخص
1923	58.586 شخص	1924	71.028 شخص
1925	24.753 شخص	1926	48.677 شخص
1927	21.472 شخص	1928	39.725 شخص
1930	4.630 شخص	1931	20.847 شخص
1932	14.980 شخص	1933	16.684 شخص
1934	12.013 شخص	1935	13.915 شخص
1936	27.200 شخص	1937	46.562 شخص
1938	34.019 شخص	1939	24.419 شخص
1940	13.974 شخص	1941	3.082 شخص
1942	13.773 شخص	1943	لا شيء
1944	لا شيء	1945	577 شخص

ملاحظة: خلال سنتي 1943 و1944 توقفت الهجرة بسبب اشتداد

خلال ثورة نوفمبر 1954

العام	العدد	العام	العدد
1954	164.934	1655	201.620
1956	85.640	1957	75.723
1958	49.037	1960	93.088
1961	133.210	1962	180.167